

الأحياء اليهودية في بلاد المغرب الإسلامي

الدكتورة / فاطمة بوعمامة
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

مقدمة :

تمتع اليهود بقسط من الأمن والحرية في ظل الدولة الإسلامية مقابل دفع الجزية. ويرجع دفع الجزية إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، و حدد الفقيه الماوردي شروط الجزية ⁽¹⁾ في القرن 5هـ/11م ، إلا إذا خانوا كما حدث لابن نغرالة اليهودي الذي قتل هو وأكثر من ثلاثة آلاف يهودي، وأخذت أموالهم إثر حوادث غرناطة (459هـ/1066م) بسبب خيانة اليهود للمسلمين ⁽²⁾.

ويظهر تمتع اليهود بحرية تامة في حركتهم اليومية، إذ سمحت لهم الدولة الإسلامية الرجوع في أمورهم المدنية و القضائية إلى رؤسائهم الروحيين. وكانوا يعيشون بالمدن الكبرى و القرى و اختلطوا بالمسلمين، وكانوا ضمن قوافلهم و يتاجرون معهم و يقرضون المسلمين المال، و يذبجون لهم الماشية، و يهيئون لهم الطعام ⁽³⁾.

غير أنه إذا سمح لليهود بالإقامة بينهم في كل الأحياء شرط أن لا تعلوا منازلهم عن المساجد أو المساكن الخاصة للمسلمين. وفي ظل الإسلام لم يكن هناك أي مانع لحياة اليهود وغيرهم من أهل الذمة للملكيات الخاصة ⁽⁴⁾. ولسماحة الإسلام مع أهل الذمة أيضا أجاز لهم الفقهاء بناء بيعة خاصة بهم لإقامة شعائرهم شريطة ألا يضربوا النواقيس ⁽⁵⁾.

وعرف نشاط اليهود تراجعاً كبيراً في فترة الدولة الموحدية ، إذ مارس الموحدون سياسة خاصة تجاه أهل الذمة، حيث خير الموحدون اليهود و المسيحيين بين اعتناق الإسلام أو الموت.

ويجب الإشارة إلى أن عمل الموحدين تجاه اليهود ليس من الإسلام لأن الإسلام لم يجبر اليهود و لا النصراني على إعتناق الإسلام، لكن لماذا أقدم الموحدون على فعل ذلك، لأن الدولة الموحدية قامت على مبادئ ابن تومرت الذي تتلمذ على أصحاب النزعة العقلية

في المشرق، والأخذ بمبدأ الأشعرية في قالب اعتمد فيه العقل للوصول إلى التوحيد والعبادة الصحيحة، فقدم بذلك عقيدة تجريدية أضفى عليها عملا تربويا وأخذ في تعميمها في كافة أنحاء المغرب ثم أصبحت بعد وفاته مفروضة على العامة من طرف خلفاء الدولة الموحدية (6) و أبدوا في تطبيق إصلاحهم في المغرب عن روح اضطهاد ديني عنيف جدا، ليس فقط ضد فقهاء المالكية بل وأيضا ضد أهل الذمة .

لكن في أيام الحكم الحفصي، و الزياني، والمريني، عادت الجماعات اليهودية للنشاط أكثر، فخصص ملوك المغرب الإسلامي أماكن خاصة لسكنى اليهود قرية من قصورهم لحمايتهم. فظهرت أحياء خاصة لليهود حتى و أن اختلفت تسميتها كالملاح و الحارة، و هذه الأحياء ظهرت بالخصوص في القرن التاسع الهجري (15م) لأن في وثائق الجيزة بالقاهرة لم تشر إلى أي حي يهودي خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين 4 و 5 هـ / 10 و 11 م في العالم الإسلامي (7) .

1- الملاح

عرف الربر الذي كان يقيم فيه اليهود بالمغرب الأقصى بالملاح. و الملاح كلمة من أصل مغربي، و مشتقة من الكلمة العربية الملح. وكان المسلمون يشتمون عند نطقها، و تشير المراجع أن بعض المسلمين المتشددين يسدون أنفهم عند مرورهم بالملاح كأنهم يبعدون الرائحة الكريهة المنبعثة من الحي اليهودي (8). كما أشارت بعض المصادر الإسلامية إلى هذا الربر المعروف بالملاح (9).

و أول من بنى هذا الملاح الخاص باليهود هو أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف في مدينة فاس الجديدة (10) - التي شيدت بأمر من السلطان المريني أبو يوسف يعقوب سنة 674هـ/1276م - و تقع غرب فاس البالي ليحميهم من إعتداء أهل فاس البالي إذ تعرض يهود هذه المدينة للطرد سنة 1438م بعد أن قاموا بتدنيس المسجد ووضعوا خمر داخل فوانيسه، فاضطر اليهود مغادرة المدينة و الاستقرار بالملاح (11).

أما المؤرخ سيسه Sisset فيرجع أول عقد للملكية الأرض بالملاح إلى عام 1438م،

حيث يقول أن اليهود هم الذين اشتروا قطعة الأرض التي بني عليها الملاح من امرأة مغربية تسمى لامينة، وأن الأرض بيعت بسعر دينار و شاشية واحدة لكل palme وكانت وحدة قياس تساوي بالمغرب 275م- لأن اليهود في هذه الفترة أي في القرن 13هـ/15م احتكروا صناعة الشواشي للمخزن، و بهذه الطريقة بني اليهود الملاح⁽¹²⁾

وفي عام 869هـ/1465م تعرض ملاح فاس الجديدة لاقتحام من قبل المسلمين من الأهالي و أتوا على العديد من اليهود. و حسب الزحالة عبد الباسط الذي كان بتلمسان أثناء حدوث هذا الأمر لم ينجوا إلا خمسة من الرجال و ست نساء.

وجاء في المصادر اليهودية أنه تمكن من النجاة عشرون رجلا وبعض النساء وأطفال⁽¹⁴⁾، ودفن اليهود عند باب الملاح وسد الباب بسور وفتح آخر⁽¹⁵⁾، وكان سبب الاقتحام هو العثور على جثة مسلم و اتهم اليهود بقتله⁽¹⁶⁾.

ومع مرور الزمن أصبح بالملاح دكاكين وبيع وديار حسنة، وأصبح عدد اليهود بالملاح بعد قدوم يهود إسبانيا حوالي عشرة آلاف شخص⁽¹⁷⁾.

وانتشرت هذه الأحياء في تازة⁽¹⁸⁾، وباديس⁽¹⁹⁾، ونفزة⁽²⁰⁾، وأزمور⁽²¹⁾. ويصف حسرفاتي في حوليته ملاح فاس yahas fes في القرن 13هـ/15م ويقول: "إنه أكبر أحياء اليهود بالمغرب الأقصى، به عشرة شوارع تلتقي كلها عند ساحة واسعة وهي : درب باب عدوق، السبة الضيقة، السبة الواسعة، درية دلباب الملاح، درية من جهة السوق، درية من جهة الخضارين، ودرية الغادية - أنظر المخطط - وتم هدم معابد أو بيع الملاح سنة 5500 بالتقويم اليهودي"⁽²²⁾ الموافق لسنة 1790 م، أما البيع الموجودة حاليا وعددها أربعة عشر بيعة فهي ملك للخواص⁽²³⁾.

2- الحارة:

كان اليهود بالمغرب الأدنى يقيمون بأحياء خاصة تعرف بالحارة وكلمة حارة مرادفة لكلمة ملاح بالمغرب الأقصى، ومصطلع الجيتو باروبا، و لا يوجد شرحا لهذه الكلمة في اللغة العربية. و الحارة حسب الزمخشري هو حي دائري الشكل، به ديار متقاربة بعضها

البعض⁽²⁴⁾ و يطلق على هذا الحي أيضا اسم حرة أو حويرة نسبة إلى مدينة يهودية أو حي اليهودية بجبل نفوسة⁽²⁵⁾.

و كلمة حرة أو حارة كثيرة الاستعمال بين يهود طرابلس وجربة، و حرة بضم حرف الحاء ثم حرفت إلى حارة بعد الفتح الإسلامي، وهي أحياء بالمناطق الداخلية سكنها اليهود بعد إنسحاب الرومان ثم البيزنطيين، ويقول slouschz :

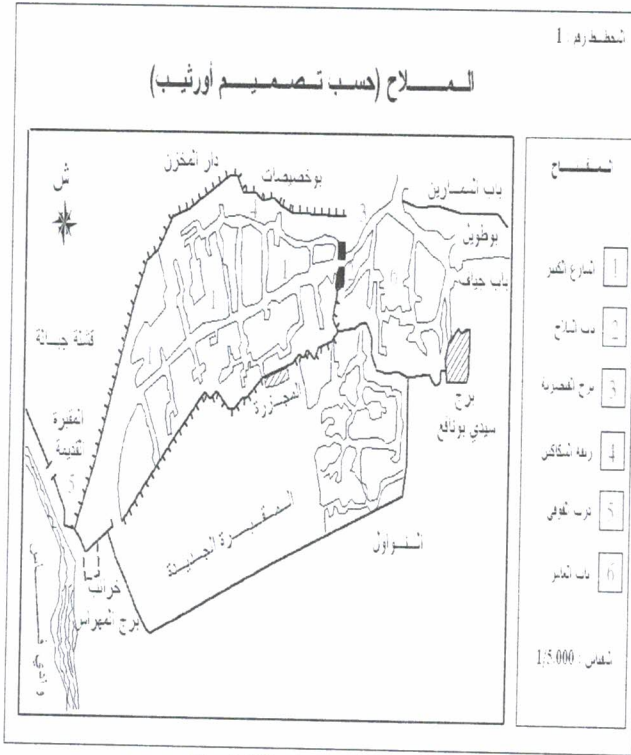
" يستبعد أن تكون هذه الكلمة (الحارة) مشتقة من الكلمة اليونانية و معناها المعسكر أو المدينة، أما في اللهجة المالطية فالحارة معناها المدينة " ⁽²⁶⁾. و يرجع بناء أول حارة لليهود تونس إلى الفقيه سيدي محرز⁽²⁷⁾ سنة 1022/413م بعد أن كان اليهود يقيمون بقرية الملاسين خارج سور تونس⁽²⁸⁾، و تطورت مع تطور الزمن، و مازلت تعرف بهذه التسمية إلى يومنا هذا وتوجد عند باب السوق⁽²⁹⁾.

وإزداد عدد الحارات في القرن 9/15م، ففي حارة جادو- بجبل نفوسة كان بها حوالي ثمانين صائغ يهودي، غير أنه في سنة 900/1496م اضطر يهود جادو والمناطق المجاورة مغادرة المكان، و كذلك يهود نفوسة بسبب انتشار الفقر و المجاعة، و استعبد البعض منهم كيهود إفرن مما جعلهم يغادرون المنطقة سرا و توجهوا إلى طرابلس⁽³⁰⁾، واستقروا بها في نهاية القرن 9/15م⁽³¹⁾. كما توجد حارة أخرى بمدينة القيروان عند باب أبي الربيع⁽³²⁾.

أما بالمغرب الأوسط فلم تكن هناك أحياء خاصة باليهود، بل كانوا يعيشون في جماعات موزعة بين الأهالي من المسلمين، إلا أن يهود تلمسان كانوا يقيمون بأغادير في القرن 8/14م، تم في نهاية القرن نفسه سمح لهم بالإقامة تحت أسوار المشور بعد تودد الحبر إفرايم عنقاوة للحاكم، كما سمح لهم ببناء بيع⁽³³⁾.

وكانت هذه الأحياء اليهودية بالمغربين الأدنى و الأقصى عكس ما كانت عليه جيتوهات أوروبا والتي ظهرت نتيجة التعصب الديني و قهر النصارى لليهود⁽³⁴⁾. وإن أقامت السلطة الحاكمة هذه الأحياء بالمغرب الإسلامي، فهو من أجل حماية اليهود من

جهة، تم ميل اليهود أنفسهم إلى حياة التجمع، و ميلهم للعزلة الاجتماعية، و رفضهم الاختلاط بالشعوب الأخرى تنفيذا لمبدأ التلمود.



المسرح تروني تروني : الحاسن بن الحسبة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1996، ج1، ص 138

المصادر و المراجع :

- 1- الماوردي : الأحكام السلطانية و الولاية الدينية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص126
- 2- ابن غداري: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق و مراجعة ح ، بن كولان و ليمى بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط2، دت، ح3، ص375
- 3- أنظر: Eisenbeth (m): Les juifs d'Algérie et de Tunisie à l'époque Turque (1516-1830), Alger, société historique algérienne 1958, pp 130-131.
- 4- الونشريسي : المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس و المغرب، تحقيق محمد حجي و آخرين، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، ج7، ص59 - 60 - 73 - 75.
- 5- الماوردي : المصدر نفسه، ص 137 ب ابن القيم الجوزية : أحكام أهل الذمة تحقيق صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ط 3، 1983، ج2، ص 151.

- 6- الطاهر بوناني : التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 - 7 الهجريين / 12-13 للملادين، الجزائر، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004، ص 88.
- 7- أنظر :

Goitein (S.D) : jews and arabs, new-york, 1946, pp70-74.
Corcos (D) : quelque aspects de la société juive marocaine dans le vieux
Maroc : les prénoms juifs marocain, the hebrew university
jerusalem,
folklore research center studies, 1972 ; p59.

8- أنظر :

- Abbou : musulmans andalous et judeo espagnols, casablanca, ed-Antar, sud, p351 note 1.
- 9- القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، 1915، ص 154.
- 10- الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، بيروت، الغرب الإسلامي 1983، ص 143
- 11- انظر :

Assaraf (R) : une certaine histoire des juifs au maroc, 1870-1990,
France, s-d, p16

12- Sisset : le mellah marocain, J-As, 1927, pp373-377

- 13- عبد الباسط بن خليل بن شهاب الظاهري: هو زين الدين عبد الباسط ولد بمطية في رجب سنة 844 هـ وكان أبوه خليل بن شاهين الظاهري من أمراء المماليك وأعلام رجال الإدارة في عصره، لكن عن الباسط لم يتبع أباه في مسلك الإدارة بل درس الفقه والأدب، واشتغل بالتجارة والتأليف و من أثاره كتاب "الروض الباسم في حوادث العمر و التراجم" ويبحث في تاريخ الدولة الإسلامية على نمط كتاب السلوك للمقريزي ولم يصلنا منها إلا جزء في مخطوطين بمكتبة الفاتيكان، وفيها إشارات إلى رحلة طويلة قام بها عبد الباسط في بلاد المغرب للتجارة و الدراسة الطب على أعلام تلك البلاد ما بين 864 هـ و 874 هـ قام عدة أشهر في عاصمة بني حفص ثم رحل إلى البندقية ثم إلى طرابلس و منها إلى قابس ثم القيروان ورجع بعد ذلك إلى تونس ثم إلى قسنطينة وبجاية والجزائر، ومازونا وتلمسان وهران، وزار الملق و غرناطة ثم رجع إلى وهران ثم تونس ثم رجع إلى مصر مارا بليبيا، ولم يدون عبد الباسط أخبار رحلته في كتاب مستقل ولكنه كتبها في مواضع متفرقة في كتابه "الروض الباسم" وقد قام المستشرق ليفي ديلا فيدا Levi della vida بنشر المقتطفات الخاصة بالأندلس وقام الأستاذ برنشفيك بنشر الأجزاء الخاصة بتونس والجزائر ومراكش و معها ترجمة فرنسية وتعليقات، وهذه المقتطفات و ثائق عظيمة في تاريخ المغرب في القرن 9 هـ / 15م و عرف عبد الباسط بالتسامح الديني واحترام عقائد الآخرين، أنظر: زكي محمد: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مصر، دار المعارف، 1945، ص 172 - 175 ب وانظر :

Levi-della-vida : Hespris, 1934, T19, P91

Tolédano : toledot Israël, Hespris, 1934, T19, P9

14- أنظر :

Slouschz : études sur l'histoire des juifs au maroc, archives

15- أنظر :

marocaines, TV, 1906, PP 148-149

Abdelbasset : in brunschving, deux recits de voyage inédits

16- أنظر :

dynastie des Beni-wattas, en Afrique du nord, paris 1936, P113 ; cour : la
Constantine, 1920, PP63-64.

- 17- مرمول كرخال : إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيير، أحمد توفيق، المغرب، دار المعرفة، 1984، ج2، ص 156.

18- الحسن الوزان : المصدر نفسه، ص 351.

- 19- مارمول كريخال : المصدر نفسه، ص 31.
- 20- مارمول كريخال : المصدر نفسه، ص 117 ب الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص 184.
- 21- مارمول كريخال : المصدر نفسه، ص 87.
- 22- التاريخ اليهودي يجعل نقطة بدايته خلق السموات والأرض وقد أخذ أحبارهم في حساب أعمار الأسلاف، وضم بعضها إلى بعض منذ سيدنا آدم ملتزمين في ذلك حرفيه نص الكتاب المقدس، حسن ظاظا: الفكر اليهودي أطواره ومذاهبه، بيروت، ط4، 1460هـ/1999م، ص 162.
- 23- أنظر : Hassarfaty :yahas-fes, Hesperis, 1934, PP 87-91
- 24- الزمخشري : المصدر نفسه، ص 164.
- 25- ابن قنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النقر وعبد المجيد التركي، تونس، 1968، ص 346.
- 26- أنظر : Slouschz : voyages d'études juifs en Afrique, académie des P1 543-544. inscriptions et belles – lettres de l'institut de France , Paris s-d
- 27- سيدي محرز : عالم ورجل دين، ساعده اليهود على استرجاع تونس التي كانت تحت سيطرة النورمان فبعد عودته إلى حضيرته، سمح اليهود بالإقامة وأقام لهم حارة قريبة من القصر والمسجد الكبير كما سمح لهم بالحفاظ على بيعتهم وممتلكاتهم : أنظر:
- الأنصاري: فهرست. Chouraqui(1) : les juifs de l'Afrique du nord, Paris, 1952, P122.
- الرصاص: تحقيق محمد العناني، تونس، المكتبة العتيقة، 1967، ص ص 173-174
- 28- أنظر M.Bach-hamba: les Israélites Tunisiens, Tunis, 1909 PP 74-75
- 29- أنظر : Slouschz op.cit, pp 543-547
- 30- الزمخشري : المصدر نفسه، ص 16 وانظر Abdelbasset :op.cit,P74
- 31- الدباغ : معالم الإيمان، تحقيق محمد ماصور، تونس، المكتبة العتيقة، د-ت، ح 3، ص 38.
- 32- آدم ممتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي
- 33- أبوريدة، بيروت، دار الكتاب العربي، 1967، ح 1، ص 93.